

## المجتمعات الصحراوية فى المغرب: بين الأسير والباحت محاولة قراءة منهجية فى نص الخطاب الفرنسى

عبد الكرىم مءون<sup>(١)</sup>

ارتبطت المرحلة ما قبل الاستعمارية والاستعمارية فى المغرب بظهور مجموعة من الكتابات الأجنبية حول المجتمع المغربى، وقد صنفنا هذه الكتابات بعد استقلال المغرب فى خانة الكتابات الكولونيالية أى الدراسات التى حاولت قراءة المجتمعات المستهدفة من طرف الاستعمار الأوروبى. لقد اختلفت الدراسات والأبحاث التاريخية حول التأويلات المعرفية الممكنة اتجاهها بين منتقد ومنبهر، وهما منهجان ارتبطا ببعءى الهدم المعرفى والتأسيس البديل لبنية المجتمع المغربى.

إن دراسة أى مجتمع قد تبدو عادية حينما يتعلق الأمر بالمعرفة النمطية والكلاسيكية لمجتمعات الاستقرار بحيث تصبح عملية ضبط حركية مثل هذه المجتمعات مبنية على ثوابت قد تتغير عبر الزمن الطويل وفى مجال محدد، لكن الأمر يختلف حينما يغيب هذا البعد على مستوى المجال وعلى مستوى تعامل المجتمع مع تقلبات المحيط غير المستقر. إن البحث فى حركية المجتمعات المتحركة «الرحل» تقتضى محاولة وضع قراءة خاصة لهذه المجتمعات تنطلق من محاولة فهم الممارسات الاجتماعية للفرد والجماعة داخل مجتمعات الرحل، وهى الممارسات التى يمكن من خلالها فهم أى تصرف فى المكان والزمان الذى يصدر عن هذه المجتمعات، فمن المؤكد أنها تصرفات تبدو عادية إن هى قُرأت لذاتها، وهى تبقى غريبة عند مقارنتها بممارسات مجتمعية نعبر عنها بالحضارية. إن مصطلح التحضر يبقى مبهما حينما نقارنه بعدم التحضر أو التوحش كما يؤكد على ذلك ابن خلدون حيث يقول:

«اعلم أن اختلاف الأجيال فى أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضرورى وبسيط قبل الحاجى والكمالى... فالبدو هم المقتصرون على الضرورى فى أحوالهم العاجزون عن ما فوقه...»

(١) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد. كلية الآداب - جامعة أغادير.

وأهل البدو هم أقرب إلى الفطر الأولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها... وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية... قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يتقون فيها بغيرهم، فهم دائما يحملون السلاح... بياسهم قد صار لهم البأس والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفروهم صارخ... فلما كان معاشهم من القيام على الإبل ونتاجها ورعايتها، والإبل تدعوهم إلى التوحش في القفر... فصار لهم إلف وربيت فيه أجيالهم»<sup>(١)</sup>.

إن اعتماد النص الخلدوني يعتبر منطلقا لمقاربتنا للنص الأجنبي هذا النص الذي يحمل إشكالا يتمثل في طبيعة نظرة الخطاب الفرنسي بالأساس، الذي اخترناه نموذجا في هذه الدراسة لمجال الصحراء والمجتمع الصحراوي المغربي، فإذا كان اختيارنا للنص الخلدوني يحمل تبريرات الفهم الخاص لمجتمع البدو فإن اختيارنا للنص الفرنسي يرتبط بمستويين من الكتابات.

الأولى صادرة عن الأسرى لدى القبائل الصحراوية خلال القرن الثامن عشر وقد اخترنا نصين لأسيرين الأول (SAUGNIER) التاجر والمغامر الفرنسي الذي كان على متن السفينة (Les deux amis) التي غرقت في ١٧ يناير ١٧٨٤م في السواحل الأطلسية الممتدة بين رأس جبي ورأس بوجدور.

أما النص الثاني فهو لـ (BRISSON) وهو من عائلة نبيلة واشتغل في إدارة البحرية الفرنسية وقد كان على متن السفينة (La Sainte - Catherine) التي غرقت على السواحل الأطلسية في يوليو ١٧٨٥م وقد أسر لدى قبيلتي أولاد بوالسبع ثم أولاد الدليم<sup>(٢)</sup>.

المستوى الثاني من الكتابة له علاقة بالبحث الذي قد نقول إنه يكتسى صبغة علمية ويقترّب شيئا ما من الطرح الخلدوني وقد مزجنا في هذا المستوى بين البعد النظرى والتطبيقي من خلال ما كتبه روبرت مونطان (ROBERT MONTAGNE) في كتابه حضارة الصحراء وفي دراسته حول حدود المغرب والصحراء الأطلنطية.

(١) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج ٢، القاهرة نهضة مصر، ١٩٨١م، ص ٤٦٧ - ٤٨٥.

(٢) Maurice Barbier, Trois Français au Sahara occidental en 1787 - 1786, Paris,

L'harmattan, 1984, pp. 26 - 37.

إذا كان نص ابن خلدون يركز على مجموعة من الخصائص التي تميز البدوى فى الصحراء خاصة مربي الإبل والننى حددها فى التوحش والكفاف والكرم والشجاعة، فإن النص الفرنسى فى القرن الثامن عشر اعتبره نوعا من التخلف وعدم التحضر، وهو رأى مخالف لما ذهب إليه (Montagne) حينما اعتبر هذه الممارسات نوعا من التحضر يجب دراستها لذاتها بالأساس، فهو يقول:

«يجب أن نكلف أنفسنا مجهود فهم البدو الرحل، من خلال محاولة التفكير كما يفكرون، لذلك لا بد لنا أن نتخلى عن أحكامنا المسبقة وعن طريقتنا فى قياس الزمن وفى تقسيم المجال وفى استشراف المستقبل وكذا التخلى عن عاداتنا فى الحكم عن الناس والأشياء»<sup>(١)</sup>. إن هذا الخطاب، برغم كونه نابع عن باحث يشتغل مع المؤسسة الاستعمارية فى المغرب، فهو يحمل هما علميا يدخل فى إطار الاستراتيجية الاستعمارية الفرنسية، حينما يصبح البحث العلمى الرزين أداة لفهم المجتمعات الصحراوية.

لقد تجسدت هذه الرغبة من خلال المؤتمر الذى نظمته السلطات الاستعمارية الفرنسية حول المجالات الصحراوية بمؤسسة الدراسات العليا المغربية بالرباط فى ٣ مايو ١٩٣٠م، والذى أرادت من خلاله فهم الخريطة المجالية والاجتماعية لما كان يسمى بالصحراء الغربية.

## الترحال ممارسة اجتماعية وتوازن بيئى

ترتبط كلمة الرحل NOMADE بالأصل الإغريقي NEMO أى التوزيع أو تقديم جزء من المرعى لقطيع من الماشية أو NOMAS أى أرعى، وبذلك فالسلوك الترحالى يعبر بالأساس عن نمط للعيش لا عن إثنيات وشعوب، وبذلك تصبح البداوة عبارة عن نمط فى الحياة قائم على التنقل الدائم للإنسان فى طلب للرزق حول مراكز مؤقتة يتوقف مدى الاستقرار فيها على كمية الموارد المعيشية المتاحة فيها من ناحية، وعلى كفاية الوسائل الفنية المستعملة فى استغلالها من ناحية ثانية، وعلى مدى الأمن الاجتماعى الطبيعى الذى يمكن أن يتوفر فيها<sup>(٢)</sup>.

(١) Robert Montagne, La civilisation du désert nomades d'orient et d'Afrique, Paris, Hachette, 1947, p. 13.

(٢) محمد دحمان، الترحال والاستقرار بمنطقتى الساقية الحمراء وواد الذهب، الرباط، ٢٠٠٦م، ص ٢٢.

إن الأصل فى التنقل والترحال هو الإبل، فهناك اتحاد وثيق بين الإنسان والحيوان إلى درجة أنه إذا غاب الجمل فسيستقر الرحل، فحركة الترحال هى حركة استراتيجية أكثر منها اقتصادية وهو ما يجعل ثقافة الرحل مبنية على التعقيد بحيث لا يمكن فهم مجتمعات الرحل فى الصحراء دون فهم للعقلية التى تؤسس هذه البنية الاجتماعية، وذلك عن طريق ضبط لأدوار الفاعلين الاجتماعيين، بحيث إن كل فاعل يؤدى دوره فى إطار منظومة متكاملة متضامنة تحكمها قسوة البيئة والمجال وهو ما يجعل أفراد هذا المجتمع يمارسون ثقافة تنعت بالنهب والوحشية وتنزع عنها صفة التحضر.

إن ساكن الصحراء يتميز بممارسات فكرية وثقافية لها علاقة بالمجال من جهة وبالمعتقدات والفراغ من جهة ثانية، فالفراغ والمجال القاحل قريب منهم ودائم ويومى، وبذلك فإن تقسيم الأدوار داخل المجتمع يحتمل الدقة من خلال الأدوار الموزعة بين أفراد العائلة أو العشيرة، وبذلك تصبح الروح الأنانية للفرد محددة تحديدا اجتماعيا بحيث تعيش فى إطار المقولات الذى يدين بها فى تكوينه<sup>(١)</sup>.

إن هذه الممارسات تؤدى إلى اختلاف خبرات الأفراد وأدوارهم ومراكزهم فى المجتمع بحيث يختار الفرد أدوارا ومراكز ووظائف قد لا يشارك فيها عدد أفراد المجتمع الآخرين<sup>(٢)</sup>، كل هذه الأدوار تحمل خصوصية داخل المجالات الصحراوية فهى تؤسس لبنيات ومعتقدات حامية للنفس والجسد وهى تؤمن المجتمع والمقطيع ضد المخاطر وتجعله يؤسس لنفسه طقوسا خاصة فى السفر والتنقل والسكن والأكل والشرب كل هذه التوجهات تحمل تيمات بيداغوجية وقيم تدافع عن استمرارية النظام وخلقه لتوازن بين الإنسان والبيئة.

إن هذه القيم والمعتقدات قد تبدو مشتركة بين جميع المجتمعات إلا إنها تشكل استثناء فى المجالات الصحراوية ومجتمعات الترحال، حيث الضعف الديموغرافى وصغر المجموعات الاجتماعية وهشاشتها، فأى تغير عميق فى علاقة المجتمع مع محيطه يترجم برد فعل آنى ويومى.

(١) إلهام غالى، الأنثروبولوجيا الفكرية، دراسة فى أنثروبولوجية بيبير بورديو، القاهرة ١٩٩٩م، ص ٢٩.

(٢) الزهرة إبراهيم، الأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا الثقافية، دمشق، ٢٠٠٩م، ص ٢٤.

إن معرفة طرق ومعتقدات تفكير هذه المجتمعات كفيل بفهمها، بحيث إن تغير أو تطور المعتقدات الخاصة بهذه المجتمعات لا يمكن أن يتم إلا عند الضرورة التي تؤدي إلى خلق آليات جديدة تتناسب لضمان استمرار الحياة وتجدد المجتمع<sup>(١)</sup>.

يجب أن تنطلق أى قراءة لمثل هذه المجتمعات من مستويين، يبحث الأول في علاقة الإنسان بالإنسان، ويبحث الثانى فى علاقة الإنسان بالوسط الذى يعيش فيه. وانطلاقاً من هذين المبحثين تصبح غاية البحث فى هذه المجتمعات متمثلة فى فهم آليات تحقيق التوازن، فالظروف القاسية للمجال هى التى تدفع الفاعل الاجتماعى إلى ممارسة طقوس محددة تدور فى فلك الحيوان الأساسى فى الصحراء الممثل فى الجمل، من أجل تأمين التوازن.

إن حياة المجتمعات الصحراوية مرتبطة بتدخل مجموعة من العناصر والظواهر التى تخرج عن مستوياتها الافتراضية القائمة فى المجال أى الطبيعية، نحو مبادرة الإنسان الذاتية الخاصة بالثقافة الخاصة المعاشة من الداخل وهى الثابتة والمستوحاة من الخارج وهى المتحركة، وتتحكم هذه الثنائية، مع وجود فوارق بينهما، بعمق فى تصرفات المجتمعات الصحراوية، وهى التصرفات التى يجب أن نفهم ونحلل من خلالها هذه المجتمعات<sup>(٢)</sup>. بعيداً عن النعوت التى أطلقت على ساكنى الصحراء من قبيل الكسل والتخلف والتعصب والخيانة والتوحش والبدائية وعدم الثقة فى الغد وغير المنظم، والمتسخ<sup>(٣)</sup>، وكلها نعوت تختلف عن البعد الرمزي لحياة الرحل، فالدراسة السياسية والاقتصادية والاجتماعية المعزولة عن البنية الثقافية المندمجة التى تعبر عن حركية نفسانية تميز هوية الإنسان الصحراوى فى علاقته مع محيطه المبنى على حياة جماعية معقدة.

فكيف لامس الفرنسيون الأسرى هذا المجتمع خلال فترة أسرهم وكيف حللوا وقرأوا ووصفوا هذه المجتمعات؟

Marceau Gast, le saharien comme concept dynamique, cadre culturel et politique, (١) in revue de l'occident musulman, V32, N1, 1981, pp. 80 - 81

Jacque Berque, Cent - vingt ans de sociologie magrébine, annales économiques, (٢) sociétés, civilisation, V11, N3, 1956, pp. 297 - 308.

Marceau Gast, op. cit. pp. 81 - 90.

(٣)

## مقاربات نص خطاب الأسير للمجتمعات الصحراوية

ننطلق للإجابة عن هذه التساؤلات من نصين كتبنا خلال فترة الأسر التي تعرض لها فرنسيين خلال القرن الثامن عشر لدى المجتمعات الصحراوية، وعملية الأسر هاته لها علاقة بتحطم وغرق العديد من السفن الأوربية في السواحل الأطلسية حيث يصبح الناجون أسرى الصدفة لدى قبائل المجتمعات الصحراوية والذين يتحولون إلى سلع تجارية يكسبون من خلالها مداخل مالية.

إن المجيء غير الاختياري منذ بداية القرن الثامن عشر للأجانب إلى سواحل الصحراء واستمرارها إلى القرن العشرين أعطى مجالا سمحا لهؤلاء أن يعيشوا ويتعايشوا مع هذه المجتمعات وبالتالي إمكانية وصفهم من خلال نظرة خاصة تعبر عن اعتقادات شخصية لهؤلاء الأسرى بالصدفة.

نطرح في هذه الدراسة نصين لروية كل من (Saugnier) سنة ١٧٩١م و(Brisson) سنتي ١٧٨٦ - ١٧٨٧م. وتعتبر هذه النصوص، انطلاقا من مقارباتنا السابقة، عن أحكام غير خاصة لا تعتمد الحياد، وهي نتيجة ترتبط أساسا بنفسية الأسير أكثر من واقعية النقل المنطقي لحياة هذه المجتمعات وهو ما يؤكد (Saugnier) نفسه حين يقول:

«إننا لا نحكم على تصرفاتهم سوى من خلال خيالنا»<sup>(١)</sup> إن هذا الخطاب سواء بالنسبة لرواية الأسير أم بالنسبة لقارئها يحمل أحكاما قيمة وإن مناخ العصر كان يتحكم في هذه الأحكام ويوجهها، لذلك فقراءة هذه الرواية لا ترتبط بما يقدمه الرحالة والمستكشفون الأوروبيون حول المجتمعات الصحراوية، والذين حددت لهم أدوارهم مسبقا، ولكن تبقى القراءة المحتملة للأسير كموضوع وضحية وسلعة<sup>(٢)</sup>.

لقد تضاربت التقارير في تحديد عدد الأسرى في المجال الممتد بين رأس باني والرأس الأبيض حيث إن تقريرى الإنجليزى (Jackson) والإسباني (Caro Baroja) يؤكدان أن

(١) Saugnier, Relation de plusieurs voyages à la cote de l'Afrique, Paris 1791, in Olivier Vergniot, la distance en histoire: Maroc Sahara occidental, in revue de l'occident musulman, V48, N1, 1988, p. 98.

(٢) Olivier Vergniot, De la distance en histoire. Maroc - Sahara occidental: Les captifs du hasard (XVII - XXe siècle) in revue de l'occident et de la Méditerranée, V48, N1, 1988, pp. 97 - 99.

هناك ما يعادل ٢٠٠ حالة غرق للسفن الأوروبية بين سنتى ١٧٥٠م و١٨٥٠م، وبما أن كل سفينة يتكون طاقمها من ١٢ فردا فحسب هذه الإحصائيات يصل عدد الأسرى إلى ٢٤٠٠ أسير، تبقى هذه الإحصائيات بعيدة عن الصحة حيث إن مجموعة من الوثائق تؤكد أنه خلال الفترة ما بين ١٧٦٨م و١٨٩٢م حصلت ٣٢ حالة غرق تمثل ٢٨٠ حالة أسر وقد تصل الاحتمالات إلى ٦٠٠ حالة ثم أسر ٥٠٠ حالة وتمكنت الحالات المتبقية من الفرار، وتبقى الملاحظة العامة حول هذه الظاهرة متمثلة فى انعدام وجود أسرى من النساء<sup>(١)</sup>.

لقد كانت الخريطة القبلية غير معروفة لدى الأوربيين والرحالة، كما أن طاقم السفن، التى تتعرض للغرق، لم تكن مهمته استكشاف مجتمعات هذه القبائل، وحتى وإن ذكرت بعض أسماء القبائل مثل أولاد دليم وأولاد أبو السبع إلا أن الكلمة الأكثر استعمالا لنت هذه المجتمعات هى كلمة المسلمين.

لقد كانت مجالات الأسر تنقسم إلى مجالين الأول فى الشمال يمثله مجال واد نون حيث يسكن البربر نصف الرحل، ويصبح بذلك الأسير سلعة تباع بشكل آنى ومباشر. أما المجال الثانى فيوجد فى الجنوب بين رأس بوجدور والرأس الأبيض ويقطنه حسب تعبير هؤلاء الأسرى أنفسهم الرحل المتوحشون وهم من العرب البيضان.

إن عملية الأسر فى هذا المجال تتم من طرف بعض الصيادين الذين يقدمون كل من تعرض لهذه العملية للقبائل الأكثر قوة مقابل تعويض رمزى، وبين هذه القبائل يخضع الأسير لتصنيفات ترتبط بمدى قدرته على العمل مما يجعل القادر على العمل يستمر مدة أطول من غير القادر أو المريض الذى يباع بشكل مباشر كى لا يكون عبئا على سيده، لقد كان الأسير المسيحي مطلوباً من طرف الوسطاء أو المخزن أو القناصل وذلك عكس العبد الأسود الذى لا يطلبه أحد<sup>(٢)</sup>.

لقد سمحت طول المدة، التى يقضيها الأسير المسيحي عند سيده والتى قد تفوق فى بعض الحالات السنة، بإمكانية إبدائه لبعض الملاحظات حول المجتمع الذى يعيش بينه قبل بيعه، وإذا سبق لنا أن تحدثنا عن نمط العيش الذى تتميز به المجتمعات الصحراوية فإن الأسير بغض النظر عن جنسيته يصبح سلعة تدخل فى حركية هذا المجتمع وإلى

Olivier Vergniot, op. cit. pp. 100 - 101.

(١)

Ibid, pp. 105 - 105.

(٢)

غاية حصول عملية البيع التى تتم غالبا عن طريق المقايضة مقابل ثلاث رءوس من المعز أو جمل أو جملين، فهو فاعل فى عملية التوازن داخل المجتمع الصحراوى، فكيف وصف (Saugnier) و(Brisson) مجتمعات الصحراء حيث مكثا مدة طويلة.

لقد كان مجال تحرك هذين الأسيرين جنوب واد نون فى مجال الساقية الحمراء وواد الذهب، فسونبى يقسم هذا المجال الذى يعتبره ممتدا من بلاد البربر إلى نهر النيجر إلى ثلاثة أقسام كبرى متوازية الأولى فى الشمال حيث مملكة فاس ومراكش وسوس، الثانية فى الوسط حيث توجد المجموعة التى يسميها عرب بلاد الجريد وتمتد من ماسة إلى رأس بوجدور، الثالثة فى الجنوب حيث يسكن العرب الرحل أو البيضان، وتمتد بين رأس بوجدور ونهرى السنغال والنيجر<sup>(١)</sup>. إذا اكتفى سونبى بذكر المجموعات الكبيرة التى تقطن فى الوسط والقسم الجنوبى أى تكنة والركيبات، فإن بريسون فصل أكثر حينما ذكر أسماء بعض القبائل الكبيرة فى هذا المجال فهو يؤكد فى روايته أن هذا المجال تسكنه قبائل كبيرة إلى حد ما تتداخل فيما بينها، وتعيش على التنقل وتستقر حيث المراعى المتوفرة على الأكل للقطيع ويتحدث فى روايته على تقسيم مجالى شمال (Rio de oro) وادى الذهب تسكنه قبائل العروسيين وأولاد تيدرارين ومجال ثان جنوب (واد الذهب) بين الرأس الأخضر وأدرار وتسكنه أولاد دليم وأولاد بوالسبع<sup>(٢)</sup>.

لقد اتفقت الروايتان على وصف هذه المجتمعات بكونها تدين بدين محمد، ومع ذلك ففى عاداتهم تذكر هاتان الروايتان بعض القوانين الطبيعية التى تعبر عن بصمة خاصة بخرافات بعيدة عن الدين الإسلامى، وبرغم هذا الحكم فقد تحدثت الروايتان عن الطريقة التى تؤدى بها الصلاة وعن عملية التيمم التى تتم بواسطة الرمال بسبب غياب الماء، وإذا كان بريسون قد تحدث عن صلاة طلوع الشمس، وعن مشاركة النساء فى هذه الصلاة وصلاة العاشرة ليلا أى العشاء داخل خيامهن، فإنه لم يذكر عدد الصلوات التى تتم خلال اليوم، خلافا لسونبى الذى حددها فى ثلاث صلوات، كما أكدت الروايتان أن الصلاة تتم بشكل جماعى بوجود إمام.

(١) Saugnier, Relation de plusieurs voyages à la cote de l'Afrique, Paris 1791, in Maurice Barbier, op. cit, pp. 131 – 133.

(٢) Brisson, Histoire du naufrage et de la captivité de M. Brisson, Paris, 1789, in Maurice Barbier, op. Cit. p. 197.

إن الإشكال في عملية نقل طقوس الصلاة لا يكمن في عملية وصفها، كما سبق ولكن فيما يتبعها من ممارسات وطقوس - كما قال بريسون - تشبه ما يفعله المسيحيون في الكنيسة، فهو يقول:

«حينما تنتهى الصلاة يبقون جالسين بعض الوقت، ويرسمون بأصابعهم أشكالا مختلفة فوق الرمال ويديرونها فوق رؤوسهم كأنهم يقومون برشها، هؤلاء المتوحشون خلال طقوسهم يمارسون نفس الاحترام الذى نشعر به فى كنايسنا، مع ذلك لا أعتقد أنه من الممكن العبث بالدين أكثر مما يفعلون بمجرد نهاية الصلاة»<sup>(١)</sup>.

إن هذا الخطاب يحمل صورة كاريكاتورية على ممارسة طقوس الصلاة لدى هذه المجتمعات فهو ينعته بالتمرين، يمارسه شخص ويتبعه آخرون سواء على مستوى عملية التيمم أم أداء الصلاة، وأما تركيزه على ممارسات قد تبقى عادية بعد كل صلاة، على كونها تلاعب بالدين إلا تعبيراً عن عدم فهم حقيقى للمجتمع الإسلامى.

إن هذه الصورة قد كررها بريسون عندما تحدث عن تعلم الأطفال الكتابة والقراءة فقد وصف طريقة التعلم التى تتم بصوت عال برغم اختلاف الدروس من طفل إلى آخر، لكنه عبر عنه بالخليط الفظيع، كما وصف الطريقة التى كانت تكتب بها الألواح وكيف تسمح وشكل القلم الذى تتم به الكتابة<sup>(٢)</sup>، وإذا كانت هذه هى الصورة التى وضعها بريسون حول طريقة التعلم فإن سونبى أعطاها بعدا آخر حيث أوضح لنا أهمية المعلم الفقيه فى تكوين الأطفال وتحركه الدائم لتحقيق هذا الغرض.

إن عملية التعلم حسب بريسون تبدو تراتبية حيث إن الكبار يأخذون تعليمهم من الفقيه مباشرة والصغار ممن هم أكبر منهم، كما أكد أنه فى المجالات الصحراوية تدخل هذه العملية فى إطار ثقافة وعادات المجتمعات الصحراوية والمتمثلة فى انعدام مخالفة رغبات الفرد وعدم معاقبة الأطفال، مما يودى إلى أن تعلمهم يعتبر نوعاً من الاستراحة من عمل آخر يدخل فى مراقبة قطيع العائلة، فالطبيعة تعتبر مؤثرة فى التربية فإذا ما أحس الطفل بنوع من الملل فى التعلم فإنه يذهب لممارسة نشاط آخر يدخل فى إطار عمل الفاعل الاجتماعى الذى يؤسس للتوازن.

Ibid, p. 199.

(١)

Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. p. 215.

(٢)

لقد خلص بريسون إلى أن القليل ممن يختص بالتعلم ليصبح فقيها ذا مكانة داخل المجتمع والوصول إلى هذا المستوى يكون في مرتبة متقدمة داخل مجتمعات الرحل<sup>(١)</sup>. إن مقارنة بعض المفاهيم الواردة في نصوص خطاب الأسيرين من قبيل الشجاعة والوحشية تدفعنا إلى محاولة أخرى في القراءة تنطلق من النص نفسه ونستعير جملة استعملها بريسون حينما تحدث عن التربية التي تعطيها الطبيعة للفرد، وبذلك يصبح تكوين الفرد داخل هذا المجتمع يحكمه المفهوم الخلدوني للتوحش، إذ إن الطبيعة القاسية هي التي تصبح متحكمة في هذا التكوين، فعملية الاختيار التي تترك للطفل داخل هذه المجتمعات لها دلالات خفية ترتبط من جهة، باختياراته المستقبلية وموقعه داخل المجتمع، وهي من جهة أخرى تكون فيه الصلابة التي يحتاجها ليكون شجاعا ومتحكما في وجوده داخل العائلة والعشيرة والقبيلة.

إن تعبير التميز للطفل ينطلق حسب هذه النصوص من سن السابعة أو الثامنة ويرتبط بطقوس تؤسس بعملية الختان وحلق الرأس مع ترك أربع أو خمس شعيرات تقطع في احتفال عائلي كلما أقدم الطفل على عملية تعبر عن شجاعته وبأسه، حيث إنه في كل مرحلة تقطع شعرة إلى أن يصل إلى مستوى الحلق الكامل للشعر، تعبيراً عن استعداده لدخول عالم الرجولة التي يستطيع الطفل تحقيقها قبل سن العشرين<sup>(٢)</sup>.

معطى آخر يدخل في هذا التكوين والمتضمن لعملية التدريب الذي يتلقاه الشاب لاستعمال الخناجر قصد القيام بقطع لحم أعدائه بأظافره، وبذلك تعتبر التربية منذ الصغر على الجريمة، حسب تعبير سونبي، أداة لعملية نبيلة يمارسها الفرد داخل مجتمعه<sup>(٣)</sup>. إن النعوت التي استعملت للحكم على هذه المجتمعات مثل الشجاعة والنهب والحرب تعتبر طبيعية إذا ما قسناها بحاجيات هذا المجتمع إلى مثل هذه الممارسات من أجل البقاء والاستمرار، فظاهرة القتل والقهر تصبح عادية لدرجة تجعل هذه المجتمعات تتباهى فيما بينها في تجمعاتها بالانتصارات التي تحققها على الأعداء<sup>(٤)</sup>.

Ibid, p. 135.

Saugnier, in Maurice Barbier, op. cit. p. 135.

Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. p. 202.

Saunier et Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. pp. 132 – 198.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

إن هذه النتيجة التي تبدو طبيعية إذا ما قسناه بأبعاد ثلاثة تبدو حاضرة في تكوين الفرد داخل هذه المجتمعات تمثلها القوانين الطبيعية والاختيارات الحرة وإثبات الذات، ونعتقد أن حكم بريسون على كثرة عدم المهتمين بالتعلم يدخل في الاختيارات التي يقدمها المجتمع للفرد في أن يكون محاربا وهو ما يبرر التقسيمات الاجتماعية اللاحقة التي عملت على تقسيم هذه المجتمعات إلى قسمين، أهل السيف وأهل القلم، وبذلك يصبح التوحش نسبي وعدم التحضر بعيدا عن الدقة، حينما يتعلق الأمر بمجتمعات الرحل التي تؤسس لفاعلية اجتماعية تنبنى على التوازن، هذا التوازن الذي لا يكتمل إلا بقراءة للنصف الثاني من المجتمع الذي تمثله المرأة.

تعتبر المجتمعات الصحراوية مؤسسة لمنطق افتراضى تتحكم فيه عملية الاستمرار والتكاثر وتعتبر المرأة محورية هذه الاستمرارية من حيث الأعمال التي تقوم بها وطبيعي أن يتدخل الرجل الذي يعتبر نفسه القيم والمسئول عن حفظ الاستمرارية عن طريق التخطيط والتفكير. إن الاعتقاد السائد من خلال نص خطاب الأسير حول المجتمعات الصحراوية يعطى صورة قاتمة عن المرأة فى المجتمعات الصحراوية، فقد نعتها هذا النص بكل تعبيرات الإذلال والتحقير سواء فى مستوى مؤسسة الزواج أم الطلاق أم فى مستوى الأشغال الشاقة التي تمارسها، تهيئة الأكل وضمان التكاثر (٥ إلى ٦) أبناء فى المتوسط، أو على مستوى حلب النوق أو المعز أو تهيئة الزبد أو نسج غطاء الخيمة وبنائها عند الإقامة أو جمعها عند الرحيل، فالمرأة تأتي دائما فى المرتبة الثانية بعد الرجل وبعد الأبناء من الذكور.

لقد أكدت هذه النصوص على التمييز الذى يحصل عند ولادة الزوجة لفتاة أو ولد فالاحتفال يختلف ويقول بريسون: «كل امرأة أنجبت ولدا تقوم بطلاء وجهها بالأسود لمدة ٤٠ يوما أما إذا كانت أنجبت بنتا فلا تقوم بطلاء سوى نصف وجهها ولنصف المدة أى ٢٠ يوما»<sup>(١)</sup> أى إن مدة طقوس التطهير تختلف باختلاف جنس المولود وإن كان هذا يعبر عن طقس عربى قديم فهو يعبر عن التمييز الذى يطرحه هذا المجتمع فى علاقته مع جنس المولود.

مستوى آخر، فى هذه النصوص، يدخل فى إطار العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة ويتعلق الأمر بقضية تعدد الزوجات والطلاق والإرث، فيرى سونى أن تعدد

Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. p 212.

(١)

الزوجات قليل في هذه المجتمعات كما أن الطلاق لا يحصل إذا كان للزوجة أولاد، ويؤكد سونبي ذلك بقوله :

«في حالة الخلاف بين الزوجين وانسحاب الزوجة نحو أهلها ورفضها العودة إلى زوجها الذى يطلبها، فلها أن تتزوج بمن تريد، أما إذا كان لديها أولاد وغابت عن خيمتها لمدة تزيد على ثمانية أيام فتستحق العقوبة التى قد تصل إلى القتل»<sup>(١)</sup>.

فصلت هذه النصوص كذلك فى مستويات العلاقة بين الرجل والمرأة من خلال مستويين يحمل الأول نوعا من الغرابة حينما يؤكد سونبي أن التعبير عن الحب يمارس عن طريق الضرب<sup>(٢)</sup> كما أن للمرأة طقوسا فى التعبير عن علاقتها بزوجها خاصة أثناء سفره حينما تقوم بدفن حجرة دق أوتاد الخيمة فى الرمال معلنة عدم نقل خيمتها أثناء غيابه وهى تتمنى له بصيغة أخرى سفرا موقفا<sup>(٣)</sup>.

والنوع الثانى له علاقة بالإرث وهو الذى لا يمكن فهمه إلا فى إطار خصوصية هذا المجتمع الذى تفرض عليه قوانينه الطبيعية وعقلية ثقافته ممارسات خاصة على مستوى التفصيل فى الإرث بين الولد والفتاة ويقول سونبي فى هذا الصدد :

«حينما يموت رب الأسرة فإن جميع ممتلكاته الموجودة بالخيمة تصبح بيد أول الأبناء الموجودين أثناء وفاته، فكل المجوهرات والأموال والحلى تختفى ولا يستفيد منها باقى الأبناء، ولا يمكن لهم أن يقتسموا سوى الحيوانات والعييد، الفتيات لا يشاركن فى القسمة، وينسحب عند أخيهن الكبير. إذا ترك المتوفى أطفالا صغار السن، فإن الزوجة تنسحب نحو أختها إذا كانت متزوجة، أو عند أمها. فى هذه الحالة فإن ممتلكات المتوفى لا تضيع ويتكلف رئيس العشيرة بضمانها إلى أن يوزعها على مالكيها بشكل متساو حينما يكونون قادرين على حمايتها. إذا مات العربى دون أن يترك أولادا ذكورا فإن الزوجة تنسحب عند والديها، ويرثه أخوه»<sup>(٤)</sup>.

إن تأملنا لهذه القسمة فى الإرث تؤكد ما ذهبنا إليه سابقا حينما ناقشنا الدور الذكورى فى هذه المجتمعات من جهة وأهمية تملك الأبناء من الذكور للقطيع خاصة من

Saugnier, in Maurice Barbier, op. cit. pp. 149 – 150.

(١)

Saugnier, in Maurice Barbier, op. cit. p. 150.

(٢)

Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. 212.

(٣)

Saugnier, in Maurice Barbier, op. cit. p. 148.

(٤)

الإبل والعييد من جهة فما عدا ذلك لا يهم، فالتمييز مرتبط بعدد الأطفال من الذكور الذى يعنى التكاثر الجالب للقوة، وتملك أكبر عدد من الإبل يعنى تملك السلطة والقيادة، وتبقى بذلك القراءة المباشرة لهذه النصوص كما قد تفهم من أول وهلة وكما يصورها أصحابها مرتبطة بنظرة دونية للمرأة داخل هذه المجتمعات وهو تصور خاطئ لأن المرأة فى مجتمعات الرحل تسهم فى احترام هذه القوانين الطبيعية، وإذا كان نص خطاب الأسرى قد تحدث عن تناول المرأة للطعام بعد الرجل فهذا يعتبر فى نظرنا نوعا من الاحترام لأنها تمارسه مع طفلها حينما يبدأ فى المشى، وتبقى المرأة فى هذه المجتمعات رمزا للتكاثر. أما الإبل فهى رمز للحياة وأداة للتنقل فهى توفر الحليب حوالى أربعة لترات ونصف تصنع منها الزبد ويمثلان إلى جانب الشعير المادة الغذائية الأساسية بالنسبة لهذه المجتمعات.

إن التميز داخل رجالات هذه المجتمعات يرتبط بالعائلات الكبيرة التى يختار منها رؤساء العشائر فرئيس العشيرة (تتكون العشيرة من حوالى ١٢٣ عائلة) يكون الأغنى والغنى له علاقة بعدد الإبل التى يمتلكها فهو سيد يتميز من خلال كبر خيمته التى تتوسط المخيم ومن خلال أحكامه التى يصدها والتى لا تقبل الاستئناف، يتميز كذلك بكونه المستضيف للغريب فهو صاحب الخيمة الكبيرة والمقرر لتاريخ وزمن التنقل، وهو الذى يقسم المجال حسب حاجيات القبيلة من المرعى وهو من يقرر تقسيم العشيرة إلى أقسام تتكون من ٧ إلى ٨ خيم إذا لم يكن المرعى كافيا للجميع<sup>(١)</sup>.

إن ظاهرة الكرم فى المجتمعات الصحراوية ترتبط بمستويين مستوى قد نعبر عنه بالتضامن مع المتنقل عبر هذا المجال ومستوى آخر له علاقة بالمعلومة التى يمكن أن ينقلها هذا المسافر الغريب وهو ما يؤكد نص خطاب بريسون فهو يقول:

«يسأل المسافر عن الجهة التى جاء منها وإذا ما وجد فى طريقه العديد من المراعى وبعد إجابته عن هذه الأسئلة يسأل عن انتمائه القبلى»<sup>(٢)</sup>.

إن بنية مكونات هذا المجتمع من خلال هذه النصوص تكتمل من خلال حديثها عن الصناعات (المعلمين) وقد تحدث بريسون عن وجود صانعين مثل النجار والحداد لكنه أغفل صناعات أخرى تقوم بها المرأة من نسج الصوف وصناعة القرب التى تحمل الحليب، وقد

Saugnier, in Maurice Barbier, op. cit. p. 142.

(١)

Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. p. 203.

(٢)

تعامل بريسون حين حديثه عن هؤلاء الصناع بنوع من الاستهزاء والسخرية معللا تدخله فى العديد من المرات لتصحيح ما يقومون بصناعته ، هذا بالإضافة إلى أنه أثناء حوار مع هذه المجتمعات نعتهم بالأثانية وبالتميز عن باقى الشعوب وأنه لا توجد أرض غير التى يوجدون فيها. كما تحدث على نوع من التميز بين القبائل الكبيرة والصغيرة التى تعيش تحت حماية القبائل الكبيرة وأكد على التباعد الذى حصل بينهم فى عملية الانتجاع وفى المخيمات<sup>(١)</sup>.

لقد كان عرضنا لنص الخطاب الفرنسى المنبثق عن الأسر انتقائيا بالأساس ركزنا فيه على نظرة الأسير المنتمى إلى فئة التاجر (Saugnier) والمنتمى إلى فئة العائلة النبيلة (Brisson) الأول استطاع الاندماج مع من سجنوه والثانى لم يستطع تحقيق ذلك. إن عملية الانتقاء شملت بالأساس منظور الأوربي عامة والفرنسى على وجه الخصوص للمجتمعات الصحراوية فى المغرب وإذا كان (Maurice Barbier) الذى أصدر هذه النصوص سنة ١٩٨٤م، لتبيان معاناتهم من جهة ولتقديم وصفهم لمجتمعات الرحل حيث كانوا عبيدا لدى أسيادهم، فقد كان هدفه كذلك هو تأكيد عزلة هذه المجالات عن السلطة المغربية.

لقد ركزنا فى عملية الانتقاء التى عرضناها معتمدين منهجا تحليليا يعتمد قراءة أخرى اعتمدت بالأساس على النص الخلدونى وما أسميناه بالتوازن البيئى الذى يفرض على مجتمعات هذه المجالات أن تعيش مجبرة بطرق خاصة بها تتلائم ومحيطها، لقد ركزنا فى انتقائنا على أربع قضايا أساسية فى هذه الخطابات، ويتعلق الأمر بأطروحات ثنائية تتضمن الشجاعة والتوحش، والقيادة والتميز واستراتيجية التدبير، والمرأة والقطيع وسر الاستمرارية والتكاثر، وأخيرا الطقوس والممارسات الدينية. لقد حاولنا فهم هذه الثنائيات وتحليلها فى ضوء الخطاب الخلدونى الذى يركز على هذه القضايا الثنائية، فهو يؤكد على أن اختلاف المجتمعات مرتبط بنحلتهم فى المعاش بحيث تغلب عليهم صفة التعاون من أجل الاستمرار، فعزلة هذه المجتمعات تقتضى التوحش من أجل توفير الحماية والتى لا يمكن إلا أن تكون ذاتية، وهو ما يفسر طبيعة تكوين الأبطال كما عرضته النصوص الفرنسية أى التربية على الشجاعة التى تعتبر فعلا ضروريا لتحقيق الحماية، كل هذا تجسده ثقافة عبر عنها ابن خلدون بقوله: «... بعلاقة معاشهم على الإبل ورعايتها

Brisson, in Maurice Barbier, op. cit. pp. 204 – 206.

(١)

وننتاجها... وربييت فيه أجيالهم»<sup>(١)</sup> وإن كان ابن خلدون لم يسرح فى هذه المقولة بدور المرأة فى هذه المجتمعات فمساهمتها فى تربية الأجيال وتحويل نتاج الإبل إلى الغذاء الأساسى لهذه المجتمعات يدخل ضمن ما أسميناه بالمقاربة الثنائية «المرأة والقطيع والاستمرارية والتكاثر» إن منهجنا فى مقارنة هذه النصوص لم يهتم بمسألة النقد لهذه النصوص ولكن ذهب أبعد من ذلك من خلال قراءتها فى ذاتها ومحيطها.

### المقاربة العلمية: أهمية المجال واستراتيجية المراقبة

إن الدراسات الفرنسية الصادرة خلال مرحلة الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى تدخل ضمن البحث العملى وهو توجه برز لدى المؤسسة الاستعمارية الفرنسية للتحكم من جهة فى مجال أمامى للسيطرة الفرنسية تمثله كل من الجزائر منذ ١٨٣٠م والسنغال منذ ١٧٧٩م وموريتانيا منذ ١٩٠٣م، ومن جهة أخرى، فهو محاولة لحماية هذا المجال من تطلعات الدول الأوروبية المنافسة التى تمثلها إسبانيا وإنجلترا، هذه المعطيات جعلت فرنسا تهتم أكثر بصحراء جنوب المغرب، وهو ما عبرت عنه فى المؤتمر الذى نظمته مؤسسة الدراسات العليا المغربية بالرباط فى الثالث من مايو سنة ١٩٣٠م، والذى أكد من خلاله مدير الدراسات الجغرافية (M. J. CELERIER) أهمية الاهتمام العلمى بالصحراء، فهو يقول:

«من الضرورى الاهتمام بعلم الصحراء، لاعتبارات تتمثل فى أن الصحراء تشكل عالما مميزا وله بصمة خاصة ومختلفة تماما، حيث لا يمكن أن نطبق فيه نفس السياسة التى نمارسها على عالم المستقرين فى الأطلس»<sup>(٢)</sup>.

إن الهدف الأساسى من هذا الكلام وفى هذا المؤتمر هو توفير المعلومة العلمية حول الصحراء خاصة وأن الحقيقة حسب سيليرى تبقى دائما إضافة إيجابية. فلا يمكن فهم حقيقة المغرب دون مصادفة مشاكل علاقاته مع الصحراء سواء عبر التاريخ منذ عهد المرابطين إلى حركة الهبة مرورا بوصول قوات المنصور إلى تمبوكتو، وهو ما يؤكد نوعا من التداخل الاجتماعى والمجتمعى والثقافى بين قبائل شمال جبل بانى وجنوبه.

(١) ابن خلدون، المرجع السابق، ص ٤٨٥.

(٢) M. J. Célérier, L'intérêt du Sahara occidental pour l'étude du Maroc, Acte du VII (٢) congrès de l'institut des hautes études Marocain, in Hespéris, Vol. XI, 1930, p. 3.

لقد كان الهدف من هذا المؤتمر بالنسبة لفرنسا هو تحقيق نتيجتين الأولى استراتيجية تتمثل في ضبط هذا المجال والثانية تدخل في محاولة لرسم الخريطة الاجتماعية للحركات الثقافية والاجتماعية، وقد اخترنا لقراءة هذه الثنائية المعرفية ما كتبه الباحث الفرنسي (Robert Montagne) الضابط في البحرية الفرنسية والذي انتقل إلى المغرب بعد الحرب العالمية الأولى ليثير انتباه البيوطى ويصبح مستشاره الخاص وقد قام بالعديد من الأبحاث الاجتماعية والاثنولوجية حول المغرب وأصبح أستاذا محاضرا في مؤسسة الدراسات العليا المغربية في الفترة الممتدة بين سنتي ١٩٢٤م و١٩٣٠م قبل أن يناقش أطروحته التي خص بها دراسته حول البربر والمخزن في الجنوب المغربي وقد تقلد العديد من المهام الإدارية والعلمية إلى وفاته في حدود سنة ١٩٥٤م.

نستعمل نصين لمقاربة تصويره حول مجال ومجتمع الصحراء، النص الأول أعتبره نظريا مستخرجا من كتابه الصادر في باريس سنة ١٩٤٧م تحت عنوان «حضارة الصحراء: رحل المشرق وإفريقيا»، أما النص الثاني فهو عبارة عن دراسة عرضها في مؤتمر الرباط سنة ١٩٣٠م والتي عنونها بحدود المغرب والصحراء الأطلنطية.

إن كتاب مونطان حول حضارة الصحراء يعتبر نتاجا لتجربة مشاكل الرحل تم جمعها خلال خمس وعشرين سنة من الرحلات في إفريقيا والمشرق فهو يحمل نظرة شاملة لسؤال معقد والذي تعتبر عناصره في بعض الأحيان مشتتة ويصعب الحصول عليها، ففي هذا الكتاب يتحدث مونطان عن الحياة المادية والتنظيمات الاجتماعية والمعتقدات والتشريعات<sup>(١)</sup>، وما يهمننا في هذه الدراسة نظريته المنهجية لمقاربة مثل هذه المجتمعات، فهو يؤكد أن دراسة مجتمعات الرحل تحمل صعوبة حقيقية حيث يرى أنه ليس من السهولة معرفة ومتابعة تنظيم داخلي لمجموعة مشكلة من خيم مشتتة في مجال غير محدد ومتنقل، حيث إن التمييز في مثل هذه الحالات يبقى غير ثابت، فهو يقول:

«العرب والبربر لا تتمثل لديهم العلاقات السياسية سوى عن طريق رابطة الدم أو الانتماء، ويبدو صعبا التمييز بين الانتماء الأبوي والانتماء الاجتماعي، فحينما يتعلق الأمر بكنفدرالية كبيرة فلا يمكن أن نفسر عملية الانتماء بنفس الطريقة، حيث توجد عناصر

Monteil Vincent, la civilisation du désert. Nomades d'Orient et d'Afrique, in (١) Politique étrangère, V13, N3, 1948, p. 264.

مختلفة تحدد أسباب دخول مكونات هذه الكنفدرالية وحتى إن استطعنا وضع جدول لهذه التجمعات الكبيرة فهو يحتاج دائما إلى تحسينات»<sup>(١)</sup>.

إن هذه المقاربة هي التي حاول مونطان الإجابة عنها من خلال النص الثانى الذى عمل من خلاله على تجاوز الإشكال الذى تطرحه دراسة هذه المجتمعات، وبرغم كون نتيجة هذه الدراسة ترتبط بما ذهبنا إليه سابقا، والمتمثلة فى استراتيجية استعمارية بالأساس، إلا إنها تحمل منهجية علمية حاولت فهم المكونات الممكنة لهذه المجتمعات، وبرغم أن البعد اللسانى والاجتماعى كان حاضرا ضمن تحديد أوسع تمثله الجغرافية البشرية، فإن هذه القراءة التى وضعها مونطان فى هذه الدراسة تفسر سبب اهتمام فرنسا بمجال ما بعد واد نون وبانى أى مجال كونفدرالية تكنة، ولماذا يبدو الأمر أصعب بالنسبة لها فى مجال أعمق خاص بمجال الركيبات؟

إن السؤال المحورى الذى وضعه مونطان فى دراسته حول حدود المغرب والصحراء الأطلنطية يتمثل فى: هل توجد حدود تفصل بين الصحراء الأطلنطية وجنوب المغرب، حدود جغرافية وطبيعية ترسم فى نفس الوقت تحولات فى الحياة المادية والاجتماعية والسياسية للمجتمع؟ هل توجد خطوط فاصلة بين عالم الاستقرار والترحال؟ هل نمر بمرحلة انتقالية بين الجهة الجنوبية للأطلس الصغير إلى السهوب ما قبل الصحراوية فى درعة، بشكل يؤكد لنا أننا نتجه نحو الصحراء حيث توجد الرمال؟

لقد حاول مونطان من خلال دراسته تتبع التحولات الممكنة لمجتمعات هذه المجالات مركزا على حركية سكان الجبال وعلاقتهم بالزراعة قرب الأنهار فى درعة ونون، وعرضه كذلك للحاجز الطبيعى الذى يمثله جبل بانى بين شمال يسكنه مجتمع ناطق بالأمازيغية وآخر نحو الجنوب ناطق باللسان العربى الذى تمثله سلطة بنى معقل منذ خمسة قرون.

إن الإطار الذى يهمننا فى هذه المقاربة، التى تؤسس للبنية المعقدة للمجتمعات الصحراوية فى الجنوب المغربى كما عرضها مونطان فى مستوياتها النظرية، تكمن فى أن الحدود الطبيعية الفاصلة بين المجالين هى فى نفس الوقت تتضمن مستويين من التنظيم السياسى والاجتماعى. ففى الأطلس الصغير كما هو الحال فى مجالات سوس فإن البنية السياسية

---

Robert Montagne, la civilisation du désert. Nomades d'Orient et d'Afrique, Paris, (١) Hachette, 1947, p. 49.

تعتمد بالأساس تقسيمات القبائل إلى مجموعات تستقر في مجال يمتد بين ٤٠ و ٥٠ كيلو مترا مربعا ويتكون من ساكنة تتراوح بين ٢٠٠ و ٤٠٠ كانون<sup>(١)</sup>، وتشكل هذه المجموعات جمهوريات صغيرة تسير من طرف الأمغار وهي ظاهرة تنتشر بشكل كبير في الجهة الشمالية للأطلس الصغير<sup>(٢)</sup>. إن أهمية هذه المجموعات الصغيرة تبرز في تشكيل التحالفات في حالة الحرب كما هو الحال بالنسبة للفي تحكات وتأكوزلت، لقد كانت مؤسسة اللفوف، برغم قدمها، ضرورية في هذه المجتمعات لتحقيق التوازن بين مجموعات بشرية كبيرة الانتشار تعيش طليقة ولا تخضع لحكم مركزي يضمن التوازن<sup>(٣)</sup>.

أما على مستوى الجهة الجنوبية لواد نون فإن المجموعات الاجتماعية تظهر لنا ببنيات مختلفة، فهي، يؤكد مونطان، عبارة عن تجمعات صغيرة مكونة من ما بين ١٠٠ إلى ٤٠٠ كانون يصعب تحديدها، هذا بالإضافة إلى أنها، حسب مونطان، لا تتوفر على مجلس للوجهاء وتجمعاتها تتم بالصدفة لمناقشة مستويين حالة الحرب والنقاش حول المراعى. إن هذه الوضعية تجعل كل رئيس خيمة رئيسا عن نفسه، وفي هذه الحالة تتحول الوحدة إلى كونفدرالية تضم آلاف الكوانين مثل ما هو الحال بالنسبة لكونفدرالية تكنة، وهو ما ينطبق على إد بلا وإد الجمل.

إن الاختلاف داخل هذه المجموعة مقارنة مع لفوف الشمال يكمن في الحرية التامة في اختيارها الجهة التي تريد الانتماء إليها، وتقدم خدمة الحرب لمن تريد ودون تقديم أى تبرير<sup>(٤)</sup>.

إن هذا التوجه الذى يحمل بعدا اجتماعيا مرتبطا أساسا بطبيعة المجال الذى يتحكم فى ظروف التموقع داخل التحالفات حفاظا على آليات البقاء والاستمرار، وهو ما يفسر ظاهرة الانتماء التى تتجاوز علاقة الدم نحو علاقة أكثر عمقا وهى التى تشكل القراءة الثانية لمواطن التحول الاجتماعى نحو المناطق الصحراوية التى حددها بأيت يوسى التى تعتبر آخر شكل للتحول قصد المرور من الترحال الصغير نحو الترحال الكبير الذى تمثله قبائل الركيبات المميزين بدوابهم وتنقلاتهم الواسعة.

(١) الكانون يعنى الأسرة التى تتشكل من ٥ إلى ٦ أفراد.

Robert Montagne, La limite du Maroc et du Sahara atlantique, in Hepéris, Vol XI, (٢) 1930, p. 115.

(٣) على صدقى أزيكو، تاريخ المغرب أو التأويلات الممكنة، الرباط، مركز طارق بن زياد، ٢٠٠٢م، ص ١٥٢.

Robert Montagne, la limite du Maroc et du Sahara atlantique, op. cit. p. 116. (٤)

التمييز الاجتماعي الثاني يحدده مؤنطان في مؤسسة ذات طابع سياسى معروفة «بالديحة» وهي مؤسسة غير موجودة شمال نون وبانى وهي عبارة عن اتفاق حماية تجمع مجموعة اجتماعية أو قبيلة مع غريب جاء للاستقرار في مجالها أو للعبور، هذه الحماية تكون مضمونة ليس من طرف كل المجموعة، ولكن من خلال أحد وجهاء القبيلة الذى يتميز بغناه الرمزي الذى تمثله ملكيته لقطيع من الإبل، والذى يتحول شيئا فشيئا نحو سلطة عن طريق مساعدة القبائل التى تعيش فوضى والتى تعتبر بالنسبة إليه خزانة للقوة يمكن استعمالها ما دامت مصادره تسمح بذلك.

إن هذا الحاجز الطبيعي والاجتماعي واللساني الذى ناقشه مؤنطان من خلال نصه يعتبر افتراضيا بحيث تم تجاوزه عبر التاريخ في الاتجاهين معا حيث إن كل من تجاوزه يغير عاداته وتقاليده الاجتماعية لدرجة أن نفس مجموعة الانتماء قد تختلف جذريا حسب موقعها في مجالى الترحال أو التنقل، وهو ما يؤسس لشكل من الازدواجية يحكمها من جهة الفطام مع المرجعية الأصلية، والتكامل في إطار الحراك الاجتماعي،<sup>(١)</sup> الذى يؤكد على وجود نوع من التداخل الثقافى بين المجتمعات المستقرة في واد نون ورحل مجتمعات البيضان التى كانت تتجه نحو الشمال حينما تضيق وتنعدم مراعى الجنوب.

### الخلاصات المنهجية والأهمية التاريخية

بين الأسير والباحث مسافة على مستوى الزمن القرن الثامن عشر بالنسبة للأول والقرن العشرون بالنسبة للثاني، هو انتقال من معانات الأسير مع الأسر ولكن كانت الكتابة أداة للتنبيه والوصف، وتنبيه المجتمعات الأوربية لخطورة المجال وصعوبته، هذه الصعوبة التى حاول البحث فهمها لتحليلها استراتيجيا واجتماعيا خدمة لمصلحة استعمارية بالأساس، ولكنه في ذات الوقت أداة لتبرير الاختيارات الفرنسية في تحديد مجالات استعمارها للمغرب في واد نون.

لم ننطلق فى مقارنة النصين من الهدم المعرفى نحو التأسيس المعرفى البديل ولكن قراءتنا ارتبطت بالنص وحاولت فهمه لذاته وظروفه وحيثياته، لقد اعتمدنا فى التحليل

---

Henry Marchat, La frontière Saharienne du Maroc, in politique étrangère, Vol. 22, (١) N. 6, 1957, p. 640.

على المقاربة التي انطلقت من الطرح الخلدوني الذي حاول فهم مجتمع البدو انطلاقا من نمط العيش المفروض عليه والذي أسس لبنية اجتماعية لا تعتمد التراتبية وإنما تنطلق من معطيات الفاعل الاجتماعي، وهو اتجاه نتفق من خلاله مع الطرح العلمي الذي حدده مونتان في مستواه النظري والذي سمح لنا باستنباط فرضيات لفهم المجتمعات الصحراوية في المغرب والمبنية أساسا على خلق التوازن داخل بيئة صعبة تقتضى بنية بيداغوجية خاصة وهي النتيجة التي تضيف الأهمية التاريخية لمثل هذه النصوص.

